27/5/2022

Mental Orientation and Creative Paths

التوجه الذهني والمسارات الإبداعية

Prof. Dr. Sumaiah Eid Alzaboot
CULTURAL THINKING
ASSOCIATION FOR GIFTEDNESS AND CREATIVITY

التوجه الذهني والمسارات الإبداعية

تمهيد

يمتلك الذهن البشري مقدرة على تغيير السلوك وتطويره في المراحل العمرية كافة، وهذا يعني أن ضعف المقدرة الذهنية لا يرتبط بعمر الإنسان، وإذا ما تراجعت المقدرة الذهنية عند التقدم بالعمر، فإن سبب ذلك يعود إلى قلة تدريب الذهن وتنشيطه ، وهنا يُمكن القول أن الإنسان يُعد إنسانَ الأمس، إذا كانت أفكارُه في دائرة الماضي، ويُعد إنسان اليوم، إذا كانت أفكارُه تُسطر واقعه المعاش، ويٌعد إنسان الغد إذا قاده دهنُه لأفكار مستقبلٍ مرغوب؛ وهذا ما يُمكّنه من ممارسة سلوكات ترتقي إلى الإبداع والابتكار، وتعزز لدية السلوكات الإيجابية.

بناءً على ذلك، استوقفتني هذه العبارة التي قالها "جون سي ماكسويل في كتابه " أساسيات التوجه الذهني : حول طفلٍ في الرابعة من العمر حين عنفته والدتُهُ ذات يوم قائلةً: إذهب إلى المقعد واجلس عليه، فتوجه الطفل إلى المقعد وجلس على المقعد مدة قصيرة، فقال لوالدته: إنني أجلس على المقعد ظاهريًا يا أمي، لكنني أنا واقفٌ في داخل نفسي. (ماكسويل، 2009)

وهنا يُمكنني القول أنه من الصعب على الإنسان أن يسجن توجهه الذهني في داخله، وفي ذات الوقت يبقى متحركاً في الخارج، والعكس صحيح ، ولعل هذا ما أورده عالم النفس جيمس ألين ، إذ قال: " لا يستطيع المرء أن يرتحل داخليًا ويبقى ثابتًا خارجيًا، ما يُؤكد أن ما يجول بداخل المرء ينعكس على ما يُحدثه خارجًا. (آلان، (2013)

ولمعرفة ما مكونات التوجه الذهني، يُمكن الانتقال إلى مكوناته الأساسية الشاملة

المزاج : إن المزاج هو أحد مكونات الشخصية، إذ إن شخصية الإنسان تتكون من أمزجة مختلفة، فأحيانًا يكون الإنسان غاضبًا، وأحيانًا أخرى هادئًا، وفي بعض الأحيان يكون مكتئبًا، ويعتمد التوجه الذهني شخصية الإنسان ومزاجه، فالناس الذين يتحلون بمزاج معين، يتكون لديهم توجه ذهني محدد وثيق الصلة بهذا المزاج، وفي هذا قال رجل لصديقه، لو كان الرجال مثلي، لرغبوا بالزواج من زوجتي، فرد عليه صديقه قائلاً: لو كان الرجال مثلي، لما رغب أي منهم في الزواج من زوجتي، وعن الشخصية والمزاج والتوجه الذهني، كتب أحد التربويين أن الإنسان سريع الغضب، عادة ما يدفعه توجهه الذهني إلى الإصرار والمثابرة، والإنسان المتفائل، عادة ما يدفعه توجهه الذهني إلى السلوكات الإيجابية، وعادة ما يقود التوجه الذهني للإنسان المكتئب إلى

ممارسة السلوكات السلبية؛ ما يُشير إلى أن شخصية الإنسان تتكون من أمزجة مختلفة. (ماكسويل، 2009 أ)

البيئة: إن للبيئة دور كبير في تنمية التوجه الذهني أكبر من الدور الذي تقوم به شخصية الإنسان ومزاجه، فالطفل يتلقى توجهه الذهني ، ومعتقداته وفلسفاته من بيئته الأسرية (الأم ، الأب ، الأخوة، ....،) ثم يتلقى توجهه الذهني ، ومعتقداته وفلسفاته من بيئته المدرسة، وبعد ذلك الجامعية ، والأقران ، وما إلى ذلك، ومع هذا ربما لا يكون ما يتلقاه حقيقيًا، فالتوجه الذهني يتنامي، معتمدًا ما يتلقاه من البيئة ، ويزداد قوة من خلال الاعتقاد سواء أكان ذلك الاعتقاد صحيحً أم خاطئًا.

ولمعرفة معنى التوجه الذهني، يُمكن الإشارة إلى أنه القوة المسؤولة عن تحديد النجاح أو الفشل في الحياة ، ويُمثل النسخة الراقية للذات، فجذوره داخلية وثماره ظاهرة، وهو أفضل أصدقاء الإنسان وفي ذات الوقت هو ألد أعدائه، وهو أكثر صدقًا واتساقًا من الأقوال، ويُمثل نظرة خارجية قائمة على خبرات الإنسان السابقة، فهو أمين على ماضي الإنسان والمتحدث عن حاضره، ونبوءة مستقبله. (ماكسويل، 2009 ، ب)

ويُمكن القول أن التوجه الذهني يُمثل النسـخة الخارجية للإنسـان القائمة على خبراته السـابقة، بحيث تجذب الآخر أو تنفره ، وهو يُمثل نسـخة الإنسـان الناطقة بواقعه المعاش، والأمينة على ماضـيه، ونبوءة مستقبلة؛ لذا فهو النسخة الصادقة في الإنسان.

المسارات الإبداعية للتوجه الذهني:

المسار الإبداعي الأول للتوجه الذهني(يُحدد طريقة تعاملنا مع الحياة): ويُمكن توضيح ذلك، باعتماد الأسلوب القصصي على النحو الآتي: في وقت الظهر لأحد الأيام ، كان أحد الأخوة نائمًا، فقرر الأخ الأصغر أن يمسح شارب أخيه النائم برائحة كريهة لأحدى المواد، واستيقظ الأخ من نومه وهو يشم رائحة كريهة، قائلاً ما هذا؟ رائحة هذه الغرفة كريهة، فذهب مسرعًا إلى المطبخ لكنه ما زال يشم نفس الرائحة، وما وزال يشم نفس الرائحة في غرف المنزل كافة، فانطلق مسرعًا إلى خارج المنزل محاولاً استنشاق هواء نقي، فاكتشف أن الهواء الطلق خارج المنزل لم يكن خاليًا من ذات الرائحة، فتوصل إلى نتيجة حتمية : أن العالم كله رائحته كريهة. (ماكسويل، 2009، ج)

يُمكن القول: أن هذه القصة القصيرة تنطبق على الواقع المعاش لدينا، وعلى حياتنا، فهي تمثل مشهدًا مهمًا من تفاصيل حياتنا وواقعنا، فعندما تكون توجهاتنا سيئة، يُصبح كل شيئ من حولنا سيئًا، بل يُصبح العالم بأسره سيئًا عند كثيرين، وعليه، فتوجهاتنا الذهنية تجاه الحياة هي التي تحدد ما يحدث لنا، وإن جاز لي إسقاط بعض تفاصيل هذه القصة على بعض الصور والمواقف في واقعنا المعاش؛ أستطيع القول: هناك كثير من فرص العمل التي هُدرت في حياتنا، وعدد من فرص الترقيات الضائعة أيضًا، وعدد من صفقات البيعِ غير المنتهية، وعدد الزيجات المنهارة بسبب توجهات ذهنية سيئة؛ ومع هذا هناك من يتمسك بالعمل في وظائف يكرهونها، وهناك من يتحمل الحياة الزوجية من الطرفان ، مع أنهما لا يشعران بالسعادة، ومع كل هذه المواقف الضاغطة ، فهم متمسكون بالحياة ، لماذا؟ .... لأن الإنسان ينتظر التغيير من الأخر، أو من العالم، بدلاً من أن يدرك أنه مسؤول عن سلوكاته الشخصية، إذ إن عملية إدراك الإنسان بمسؤوليته عن سلوكاته؛ يُسهم في إيمانه بمستوى مقدرته على الإبداع وتحمله للمسؤولية، وعملية الإدارك هذه تحتاج إلى عدد من المهارات الممارسة، مثل التأمل، التخيل، التكيف ويمثل المرونة التكيفية؛ الأمر الذي يدعم المسيرة الإبداعية للتوجه الذهني.

المسار الثاني للتوجه الذهني (يُحدد مسؤوليتنا تجاه الآخر): تتأثر حياتك أيها الإنسان بعلاقاتك مع الآخرين، وأن تقييم علاقات راسخة وقوية مع الناس أمرٌ صعب، فأنت لا تستطيع الانسجام مع بعض الناس، وفي ذات الوقت لا تستطيع الاستغناء عنهم؛ لذا ينبغي إقامة علاقات سليمة مع الآخرين.

بناءً على ذلك، يُشير معهد ستنافورد إلى أن العلم مسؤول عن (12.5%) فقط من الأموال التي يربحها الإنسان، بينما تُسهم المقدرة على التعامل مع الناس بنسبة (87.5%)، وهذ يُفسر أن (12.5%) علمٌ ومعرفة+ (87.5%) علاقات إنسانية راسخة = نجاح، ما يُؤكد مقولة الرئيس الأمريكي (تيودور روزفلت) التي مفادها: " أهم عنصر في معادلة النجاح هو معرفة كيفية الانسجام مع الناس" ، ومقولة (جون دي روكفيلر) التي مفادها: " إنني مستعد لأن أدفع في مقابل المقدرة على التعامل مع الناس أكثر من ما أدفعه مقابل أي مقدرة أو مهارة أخرى". (ماكسويل، 2009، د)

وفي ذات السياق ، يُمكن القول، عندما يكون التوجه الذهني لأحد الناس متمثلاً في إعطاء الآخر الأولوية، والنظر إليه على أنه مهم، فإن ذلك المنظور يعكس وجهة نظر الآخر، وإذا لم نضع أنفسنا مكان الآخرين، وإذا لم نرَ الحياة من وجهة نظر الآخر، فسوف نكون مثل الذي أصاب أحد المارة، أثناء رميه حجرًا ، واستدرك غاضبًا: لماذا لا تنتبه أثناء مرورك بالشارع! كذلك الموظف الذي يمتلك توجهات ذهنية جيدة؛ فإنه يُمنح من قبل مؤسسته ترقية، يُمكن القول إن هذه المؤسسة لم تمنحة توجهًا ذهنيًا جيدًا؛ إنما توجهه الذهني الجيد هو الذي أدى إلى ترقيته، وإلى معرفته لكيفية التعامل مع الآخر ، وتبادل المعرفة ،ما يُسهم في تنامي مقدرته اللفظية والتشكيلية والفكرية؛ الأمر الذي يدعم المسارات الإبداعية للتوجه الذهني.

المسار الثالث للتوجه الذهني (يُمثل الفرق بين النجاح والفشل): إن أعظم الإنجازات التي تحققت في التاريخ، يُلاحظ أنها كانت أو شاء الله لها أن تكون بسبب تفوق أصحابها بفارق بسيط عن الآخرين في ذات المجال، ويتمثل هذا الفرق البسيط بالتوجه الذهني، وفي ذات السياق، يقول مؤلف الكتاب ، عندما عادت زوجتي من عملها في إحدى المدارس إلى البيت، كانت في ذلك اليوم محبطة من تركيز التعليم الحديث على كفايات الطلبة؛ لأنها ترغب في اختبار الطلبة بناءً على توجهاتهم الذهنية ، ليس بناءً على كفاياتهم، إذ أنها ترى أنه يوجد طلبة يتمتعون بمستوى ذكاء مرتفع، لكن تحصيلهم الدراسي كان منخفضًا، وهناك آخرون مستوى ذكائهم كان متدنيًا، ولكن تحصيلهم كان مرتفعًا، وهذا يُشير إلى أن عملية اختيار الطلبة ينبغى أن تكون على أساس توجهاتهم الذهني، ليس على كفاياتهم. (هيل، القواعد الذهبية، مترجم، 2012)

بناءً على ذلك فقد قدم أحد رؤساء جامعة يال نصيحة لرئيس سابق لجامعة أوهايو مفادها: " كن رفيقًا دائمًا مع الطلبة الممتازين والجيدين؛ لأنك في يوم من الأيام سيعود أحدهم إلى جامعتك أستاذًا جيدًا، وكن رفيقًا مع الطلبة المتوسطين؛ ففي يوم من الأيام سيعود أحدهم إلى جامعتك ليبني مختبرًا علميًا". (هيل، التوجه الذهني الإيجابي، مترجم، 2012)

ويُمكنني القول أنه يوجد اختلاف بسيط بين الناجحين، هذا الاختلاف البسيط يخلق فارقًا كبيرًا، هذا الاختلاف هو التوجه الذهني، والفارق الكبير هو ما إذا كان التوجه الذهني إيجابيًا أم سلبيًا؛ وكأن مسار التوجه الذهن يقود إلى الإبداع من مصادر مختلفة بعيدًا عن الموهبة والذكاء والسمات الوراثية

المسار الرابع للتوجه الذهني (المنتج الجيد، بدايته جيدة): وهذا ما يجعل المدربين يتفهمون أهمية تحلي المتلقين بتوجه ذهني إيجابي قبل البدء بمنافسة آخرين ، كذلك يرغب الجراح في رؤية الاستعداد الذهني لمريضه قبل إجراء العملية، كذلك يرغب المتحدث أمام الجماهير في توافر أجواء مناسبة قبل أن يتحدث؛ لأن التوجه الذهني السليم)(الإيجابي) في البداية يضمن النجاح في النهاية، وهنا يُمكن القول أن هناك مقولة مفادها: " أن أيّ شيء يكون جيدًا، عندما تكون نهايته جيدة، وهناك مقولة أخرى وفق التوجه الذهني مفادها: " أن أيّ شيء يكون جيدًا ، عندما تكون بدايته جيدة" ، فمعظم المشاريع تنجح أو تفشل قبل أن تبدأ.

وفي أحد الأيام كان شابًا يتسلق الجبال ومعه رجل يعمل دليلاً له، استيقظ الشاب صباح يوم فجأة، وإذ بصوت تصدعٍ هائلٍ ، فصرخ الشاب قائلاً: إنها نهاية العالم، فقال الدليل: هذا الصوت ليس نهاية العالم ، بل هو مولد يوم جديد، فالصوت الذي سمعته ما هو إلاّ صوت تشقق الجليد وانصهاره، الأمر الذي يُؤكد أن

النظر إلى تحديات المستقبل بأنها غروب حياة ، خطأ، إذ ينبغي أن ننظر إليها على أنها تمثل فرصة سانحة، وشروق حياة. (ماكسويل، 2009، هـ)

يُشير هذا المسار للتوجه الذهني ويُركز الاهتمام على البدايات سواء أكانت البدايات متمثلة في المراحل العمرية، أم في المواقف، أم في الأماكن، فالجودة والأصالة في البدايات؛ تؤدي إلى قمة الإبداع والابتكار.

المسار الخامس للتوجه الذهني، (حل المشكلات) : يُؤكد التوجه الذهني مقولة مفادها: في كل فرصة توجد صعوبة، وفي كل صعوبة تكمن فرصة، فالإنسان الذي يتمتع بتوجه ذهني إيجابي ، فإنه يحقق أقصى استفادة عندما يواجه موقفًا صعبًا أو معيقًا ما، فعندما كان زملاء نابليون يسخرون منه لتواضع أصله ولفقره، كان يقضي أيامه في التعلم وقراءة الكتب، إذ لم توقفه سخرية زملائه عن العلم والمعرفة، وكانت النتيجة أنه تفوق على زملائه، وحاز على منحة مجانية كي يكمل تعليمه، وهنا نال احترام زملائه وأصبحوا ينظرون إليه على أنه أذكى طالب في الفصل.

ويُمكن القول حين يواجه إنسان ما، موقفًا صعبًا، وكان ذا توجه ذهني إيجابي، فإن هذا الإنسان يُحقق أقصى استفادة في ذات الوقت الذي يُعاني فيه أسوأ المواقف، فالحياة هي الرحى الذي يدور، فإما أن يطحن الرحى هذا الإنسان، أو يصقله، فالأمر يعتمد تكوين هذا الإنسان وتوجهه الذهني.

وفي اتساقٍ متصل، أورد المؤلف :" سمعت عبارة مفادها: " لا يوجد مجتمع قط ظهر به رجال أشداء في أوقات الاسترخاء" فالمحن تعني الرخاء والازدهار لأصحاب التوجهات الذهنية الإيجابية، وفي ذلك يُمكن القول: أن الطائرة الورقية تحلق في السماء عاليًا عكس اتجاه الريح ، ليس معه، فعندما تهب عليك رياح الانتقادات اللاذعة، ماذا تفعل، اجعلها تُمثل لك ما تمثله الرياح للطائرة الورقية، اجعلها قوة كبيرة ، معاكسة تُؤدي إلى ارتفاعك أكثر وأكثر وانظر إلى الطائرة الورقية، إنها لن تحلق، لولا وجود الخيط الذي يشدها للأسفل، وهذا ما ينطبق على الحياة ، وعلى واقعنا المعاش. (ماكسويل، 2009، و)

فإذا نظرنا في ماضي الحياة وواقعها نرى كثيرًا من العظماء، منهم ابن تيمية ، الذي سُجن ، مرات عدة، ورغم سجنه إلاّ أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف، فكُتم علمه بإخراج ما لديه من حبر وورق، ولم ييأس ، كان يكتب بالفحم المستخدم للإنارة على بعض الأوراق هنا وهناك ويقول: " حبسي خلوة، وقتلي شهادة، ونفيي سياحة) ، وترك إرثًا عظيماً تجاوز ثلاثمئة مجلد في الفقه وأصوله والتفسير، ويُمكن القول في (ستيفن هوكينغ) البروفيسور الفيزيائي البريطاني ، الذي يُعد من أعظم علماء الفيزياء في التاريخ، رغم معاناته من الشلل الرباعي منذ طفولته. (العضيدان، 2014)

ومن واقع الحياة المعاش، يُمكن اختيار أحد أبرز علماء الفيزياء ، القادم من معاناة الحصار والاحتلال الدكتور منير حسن نايفة من مواليد قرية شويكة في محافظة طولكرم الفلسطينية، الذي نال منحة مقدمة من جامعة ستانفورد الأمريكية للحصول على الدكتوراه، فحصل على جائزة البحث التصنيعي في الولايات المتحدة، ولقد تمكن من الإجابة عن استفهام مهم طرحه عالم الفيزياء الشهير "ريتشارد فاينمان" عن تحكم الإنسان في حركة ومسار الذرة وإمكانية إعادة ترتيب مواضعها داخل المركبات الكيميائية، ونجح في تحريك الذرات منفردة، هذه التقنية التي تماثل القفزة النوعية التي حققتها تقنية "المايكروتكنولوجي . (رمزي، 2014)

وفي ذات السياق، يُمكن طرح المقولة التي مفادها: يأبى القدر إلاّ أن يصقل الإنسان في المكاره والمصاعب، فالقادة العظماء يظهرون عندما تحدث الأزمات، وهم الذين يكتشفون أن القوة الحقيقية هي القوة الكامنة داخل أنفسهم، إذ تتجلّى هذه القوة في المواقف الصعبة فيظهر العالم، والمتفوق، والمخترع، وما إلى ذلك.

المسار السادس للتوجه الذهني؛ (رسم ممارسة السلوك): يُمكن التوجه إلى قصة بائعي الأحذية، عندما أرسلت إحدى الشركات في صناعة الأحذية اثنين من بائعي الأحذية إلى إحدى الجزر لبيع الأحذية، فصدم البائع الأول عند وصوله الجزيرة، فقد رأى سكان الجزيرة لا يرتدون أحذية، فأرسل على الفور رسالة إلى المكتب الرئيس للشركة يقول فيها: سأعود غدًا، لا أحد هنا يرتدي أحذية، بينما شعر البائع الثاني بسعادة عندما رأى ما رآه البائع الأول، فأرسل رسالة إلى المكتب الرئيس للشركة يقول فيها: أرجو إرسال عشرة آلاف حذاء، فالجميع هنا يحتاجون إليها. (ماكسويل، 2009، ز)

وهنا يُمكن استقراء الآتي: إن التوجه الذهني للبائعيْن ، هو الذي رسم لهما ممارسة السلوك ، إذ قاد البائع الأول إلى أن سكان الجزيرة الذين لا يستخدمون الأحذية لا يحتاجون إليها ، فجاء توجهه الذهني خاليًا من مشاعر الحاجة والمقدرة على الإقناع بشراء الأحذية، الأمر الذي وجّهَ سلوكه المتمثل بقرار العودة من حيث أتى فورًا، أما البائع الثاني فقد قاده توجهه الذهني إلى أن سكان الجزيرة لا يستخدمون الأحذية لكنهم يحتاجون إليها،فهم يجهلون صناعتها، والجهل في صناعة الشيء لا يعني أنه ليس بحاجة إليه، من هنا امتلأ توجهه الذهني بمشاعر الحاجة والمقدرة على الإقناع بشراء الأحذية، الأمر الذي وجّهَ سلوكه المتمثل بقرار بيع مزيد من الأحذية.

المسار السابع للتوجه الذهني؛ (منح المنظور الإيجابي، والإبداع): إن المنظور الإيجابي يُسهم في تحقيق بعض الأهداف الاستثنائية، ويُمكن استنباط هذا المسار من بعض الأمثلة ، فعندما واجه بنو إسرائيل جالوت ومن معه من جيش، قادهم توجههم الذهني إلى أنه أضخم من أن يتمكنوا من القضاء عليه، ومن جهة أخرى، في ذات الموقف، يُلاحظ أن النبي داوود عليه السلام، قاده توجهه الذهني إلى أن جالوت أضخم من يُخطئ إصابته، وفي مكانٍ وزمانٍ آخرين ، يُشرف رجل اسكتلندي على مجموعة من العمل، وكان هذا المشرف يعمل باجتهاد شديد، ويُطلب من مرؤوسيه أن يعملوا بجد، إلاّ أن المرؤوسين قالوا: ألا تعلم أن روما لم يتم بناؤها في يوم واحد؟ فقاده توجهه الذهني إلى الرد عليهم: بـ نعم ، أعلم ، ولكني لم أكن مشرف عمال في ذلك الحين. (هيل، القواعد الذهبية، مترجم، 2012)

بناءً على ما تقدم، يُمكن القول، أن المنظور الإيجابي للتوجه الذهني لا يعرف الحدود، فأصحابه لا يقبلون الحدود الطبيعية في الحياة، وغير مستعدين لقبول المقبول على أرض الواقع، لمجرد أنه مقبول ؛ فهم دائمًا يسألون: لماذا؟ وهم دائمًا يصرون على الوصول إلى آخر إمكانياتهم وإلى تحقيق أهدافهم، باعتماد توجههم الذي يُمثل القوة الرئيسة التي تُحدد ما إذا كان الإنسان سينجح أم سيفشل، وهذا هو المسار الإبداعي للتوجه الذهني الذي لا يقبل بما هو مقبول في الواقع، إنما يقبل بما هو مقبول لديه، فيحاول دائمًا جعل غير المقبول مقبولاً، ومنحه المنظور الإيجابي....

قائمة المراجع

جون سي ماكسويل. (2009 أ). *أساسيات التوجه الذهي، ترجمة مكتبة مؤمن قريش*. الرياض: مكتبة جرير للنشر والتوزيع.

جيمس آلان. ((2013). *الإنسان كما يُفكر... يكون ، ترجمة أسامة جناد*. https://www.kutubypdf.com/link/?101534/.

دعاء رمزي. (22 7, 2014). *إجازات عظيمة في العصر الحديث*. مجلة عالم الإبداع: https://www.arageek.com/ibda3world/12

سلوى حسن العضيدان. (2014). *هكذا هزموا اليأس*. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر .

نابليون هيل. (2012). *التوجه الذهني الإيجابي، مترجم*. مكتبة جرير.

نابليون هيل. (2012). *القواعد الذهبية، مترجم*. مكتبة جرير.